عين زبيدة
في مكة

١ — لمحة تاريخية

إن مجرى عين زبيدة عمل هندسي جليل جمع بين العظمة والبساطة ، تُجمع بواسطة مياه الأمطار التي تهطل في وادي النعمان أو على قمم الجبال المحيطة به في قناة مبنية . ومبدأ القناة في بطن وادي النعمان ، ثم بعد مرورها بوادي عرفات والمزدلفة واقترابها من منىً تتجه نحو مكة وتتفرّع فيها ، فيستقي منها الحجاج في أيام الحج . وأما أهل مكة فهي بين أيديهم طوال السنة .

ويرجع الفضل في انشائها إلى السيدة زبيدة زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد. وقصة ذلك أن السقاية — وهي السهر على تمتع الحجاج بكفايتهم من الماء — كانت من مفاخر العرب ، إذ كانوا يتسابقون الى تولي أمرها . وقد تناقلتها بيوتات قريش إلى أن أبقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني العباس . فلما جاءت السيدة زبيدة إلى الحج ورأت ما يعانيه الحجاج وأهل مكة من التاعب في الحصول على المياه التي كانت تُجلب على ظهور الدواب من الآبار السحيقة، أمرت بالبحث عن مورد للماء غزير وعذب . فأرشدت إلى عيونٍ عدة في وادي حنين كانت ترويه . فأمرت أن تُشترى تلك العيون فيُحمل ماؤها إلى قناة واحدة تجري حتى قلب مكة . ولكن القناة لم تكن تمر بمشاعر الحج (عرفات والمزدلفة ومنى) فرأت السيدة زبيدة أن تأمر ببناء مجرى آخر لإمداد المشاعر بالمياه ، فأنشئت سنة ١٨٠ هـ عين النعمان من طرف جبل كَرَى من جبال الطائف حتى مكان قريب من جنوب منى . ولم يمكن إيصالها إلى مكة لوجود صخر صلب في طريقها يتعذر نقره .

وقد تعهد هذا المجرى الحكامُ من خلفاء الأمم الإسلامية وسلاطينها بالترميم والتعمير واستمرّ الماء يجري فيها حتى الدولة العثمانية (سنة ٩٢٣ هـ) فأهملت العيون فتهدمت وجفّ ماؤها (سنة ٩٣٠ هـ) وعاد الناس الى أخذ الماء من الآبار . ثم لجأوا إلى السلطان سليمان القانوني (سنة ٩٦٩ هـ) فأمر بتعمير عين النعمان ، وإنشاء قناة جديدة (سنة ٩٧٩ هـ)

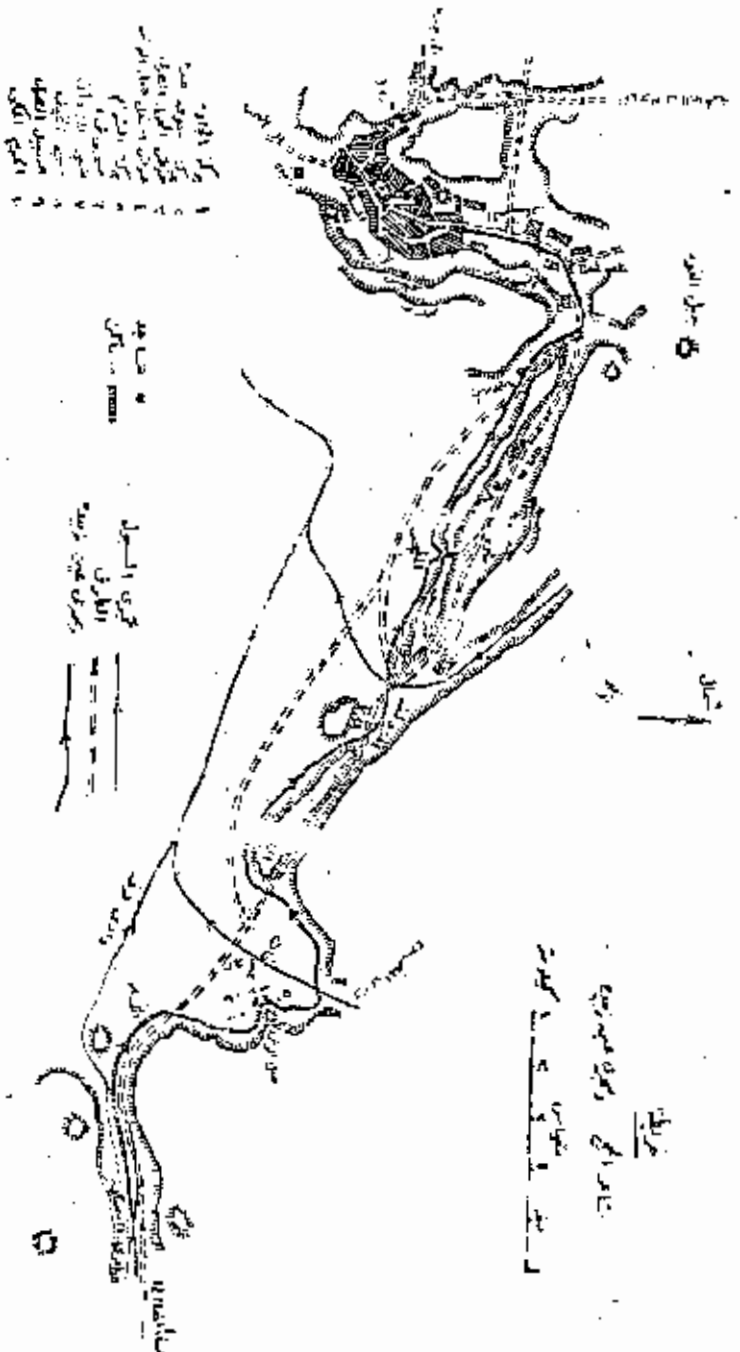

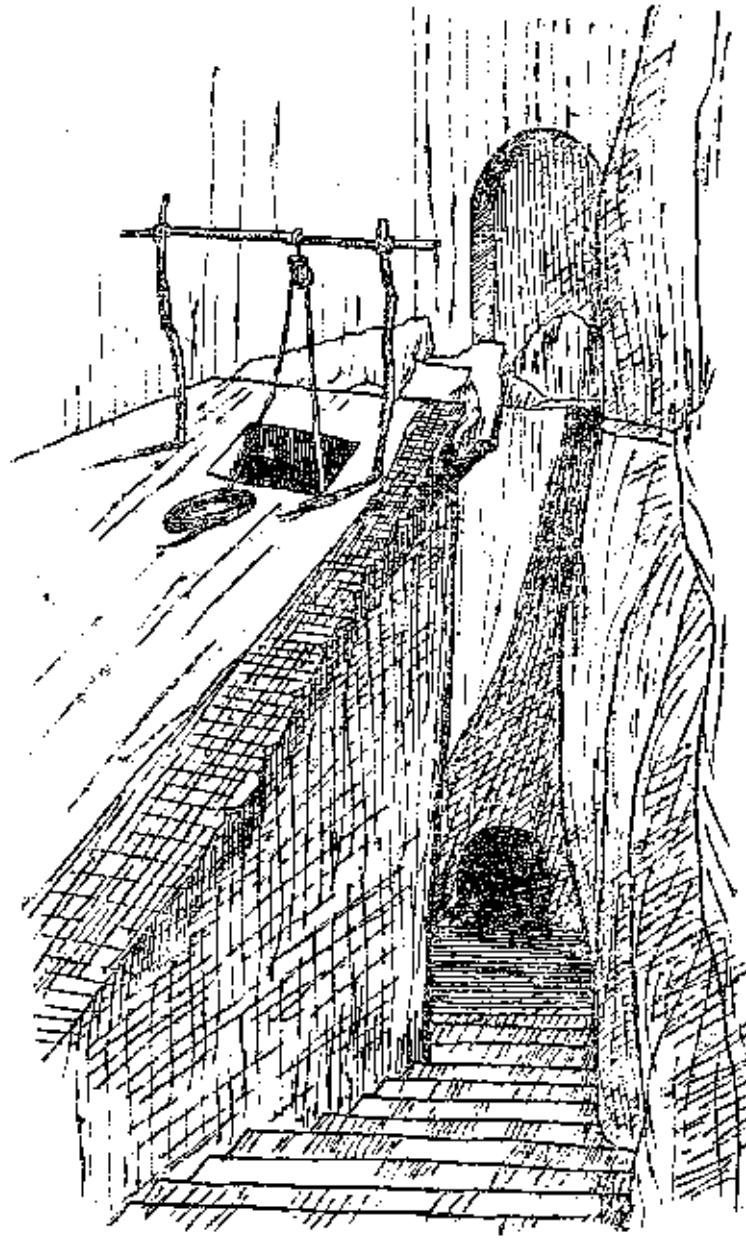

شكل يبين سحب الماء من الدبل « المجرى » في حالة سحق العمق

لإيصال المياه إلى مكة ثم في جوف الصخر الذي أمكن حفره بإيقاد نيران على سطحه لكي يتشقق.

وأهملت عين حنين بعد ذلك، وأصبحت عين النعمان تروي المشاعر الثلاثة ومكة ومساحات قليلة من الأراضي الزراعية، وهي تسمى الآن عين زبيدة.

وقد تراوح الخراب والتعمير هذا المجرى بسبب السيول والزلازل أو الاهمال، ثم بفضل العناية تبعاً لتغير الحكام واختلاف نزعاتهم، حتى تألفت لجنة للإشراف على العين ومرافقها بالإصلاح والتوسيع (سنة ١٢٩٥ هـ).

ولما دخلت البلاد في حكم الملك ابن السعود (١٣٤٣ هـ) أيّد الملك اللجنة التي كانت موجودة وحملها على صيانة مأخذ الماء ومباني المجرى.

٢ — طريقة إسالة الماء في المجرى

ليست هذه العين نبعاً طبيعيًّا فتتدفق من أعالي الجبال لتجري في الشعاب والأودية وتكوّن الأنهار، بل هي من تدبير الانسان بتسخيره للموارد الطبيعية وتذليلها لارادته. فوادي النعمان تحيط به جبال شاهقة أحجارها صوانية تهطل عليها الأمطار فتسيل إلى الوادي وتغور في رماله الكثيفة إلى أن تصل إلى طبقة صخرية لا تستطيع المياه أن تنفذ منها، فتمتصها الرمال في الطبقات السفلية ثم تنحدر بطبيعتها بحسب الميل الذي في سطح الطبقة الصخرية.

التي تبلغ الطبقات الرملية المتصة للمياه وأنشىء مجرى (هـ الدبل» في لغة الحجاز) تأخذ منحدر وجوانبه مفرغة للعامات، فان الماء يتسرب من الرمال الى داخل «الدبل» ويجري فيه جهة الانحدار. وإن ألحقت بالمجرى فروع متشعبة في جهات الوادي (وهذه الفروع في لغة الحجاز يقال لها شعاحيت) زاد مقدار الماء المتسرب الى «الدبل». ثم ان جعل قدر الانحدار في المجرى أقل من قدر انحدار سطح الماء الجوفي بلغ «الدبل» نقطة يلتقي فيها بأعلى منسوب لسطح الماء، فيدخل في الرمل الجاف. وان أنشىء «الدبل» من بناء أحكم بعد ذلك أمكن تسيير الماء وتوجيهه الى حيث يراد. وهذه هي الطريقة المستعملة في أنحاء الحجاز لجمع المياه من بطون الأودية وجلبها للبلاد (وتسمى «العيون»). وهي نفس الطريقة التي تجمع بها مياه وادي النعمان فتجري في «الدبل» مارة بالأودية وفي سفح الجبال، الى ان تصل مكة، وعين الزرقاء بالمدينة المنورة يجمع ماؤها بهذه الطريقة أيضاً.

عين الطبيعة

وقعت حادثة لم يسمع بمثلها في تاريخ الطب في أميركا ، هي حادثة ميلاد طفل سوي حي تكون أثناء تخلقه خارج أعضاء أمه التناسلية .....

ولقد روى هذه الحادثة طبيب من لوس انجليس ونشرتها صحيفة شيكاغو صن . حدث ذلك في مستشفى الفيلبرس . والأم هي مدام بيسي ووكر ، عمرها ٢٣ سنة ، وابنتها المولودة اريس جان وزنت سبعة أرطال ونصف عند ولادتها . ووصف دكتور ر . ب جنكنس حالة هذه الوضع بأنها « حمل يطفو خارج الرحم » . قال ان الجنين لم يتخلق في الرحم أو القنوات الفلوبية ، بل في تجويف البطن ، حيث أتيحت له الطبيعة مكاناً الى جانب جهاز الأم الهضمي . والظاهرة النادرة اكتشفها دكتور جنكنس عند ما استعد لاجراء العملية القيصرية لينقذ الطفل ، وكان قد مر عليه ٢٣ يوماً أزيد من الزمن المعتاد .

ولكن الاطباء المساعدين أخذوا بالعجب عما رأوا . فان الرحم كان في حالة سوية وليس بها أي أثر من آثار التأثر بالحمل . وزاد عجبهم عند ما برز لهم الطفل صارخاً بقوة غير معهودة . ولكن متكلتم الكبرى انحدرت في كيس وجدت الدهشة للقمة طريقها من القناة الفلوبية مخترقة جدار البطن الغربي الى جزء من الجنين لا يمكن الوصول اليه إلا بعملية جراحية . ثم مشكلة أخرى ، كيف اغتذى الجنين أثناء الحمل

قال دكتور جنكنس : « من أجل ان ذلك الكيس الذي يجري كل جنين قبل الولادة كان مملوءاً بجالون كامل من الدم ، بدلاً من الماء ، أعتقد أن الطبيعة قد أعدت الجنين دورة دموية خاصة جرت بين ذلك الكيس والأم ، وان الجنين غذي بطريقة النضح أو الامتصاص من البيئة الدموية التي أسعفت بها الطبيعة ذلك الكائن في عزلته تلك .

لا بد من أن الطبيعة تكون قد احتاطت قبلذلك جهدها في الاحتفاظ بحياة الأم وحياة الجنين معاً . فان الكيس الذي حوى ذلك الدم كان أكثر صلابة وتماسكاً من المعتاد . ولو انه انفجر في جوف الأم ، اذن لقتلها بسرعة . ولقد أدلى دكتور جنكنس بهذا الأمر الى رصفائه الاطباء في جمعية كاليفورنيا الطبية ، فقرروا بالاجماع ان هذه الحالة فريدة في بابها وانهم لم يعهدوا لها نظيراً .

وقد يجري الدبل في جوف الأرض في أعماق سحيقة أو دانية ، فتشق في أعلاه فتحات على مسافات مختلفة تتصل بسطح الأرض بناء أسطوانية كبناء الآبار (يسمى « خروزات ») . وهي لازمة للتهوية أو للوصول الى « الدبل » لأجل التنظيف او الترميم .

وقد يجري الدبل على سطح الأرض فيجعل له سقف به فتحات يؤخذ منها الماء ، ويجعل له فروع تصب في خزانات أو صهاريج يستقي منها الناس .

عثمان رفقي رستم

كبير مهندسي مصلحة الآثار المصرية